

مسالك · الخطاب « من التأصيل إلى التمكين المعرفي »

PATHS OF « DISCOURS » FROM ROOTING TO COGNITIVE EMPOWERMENT

د. زارقة عبد السلام*

المركز الجامعي أفلو (الجزائر)

zerarka194@gmail.com

تاريخ النشر: 2022/03/28

تاريخ القبول: 2022/03/05

تاريخ الإرسال: 2021/12/24

ملخص: في صميم البحث عن الأنساق المنتجة للدلالة، ثمة وقفة معرفية مع التأسيس المعرفي للخطاب وتداعيات أسئلة التأويل المقلقة، فقد غدا مشكلة معرفية في التعاطي مع جهازه المفاهيمي، لذا احتاج للتأصيل. وقد تراكت أسئلة التأصيل هذه على نموذج العربي أيضا، فقد أبان عن خصوصية في البحث عن الكليات المساهمة في إنتاجه. مع الفريدة في كيفية التعاطي مع هذه الخصوصية التي امتاز بها الخطاب العربي. الكلمات المفتاحية: الخطاب - التأصيل - الكليات - التمكين - الأنساق - التأويل - النموذج.

ABSTRACT : At the heart of the search for semantic-producing patterns, there is an epistemological pause with the cognitive foundation of the discourse and the repercussions of the troubling questions of interpretation, as it has become a cognitive problem in dealing with its conceptual apparatus, so it needs rooting. About the colleges contributing to its production. With the uniqueness of how to deal with this peculiarity that distinguished the Arab discourse

Keywords: discourse - rooting - universals - empowerment - patterns - interpretation - model

1. مقدمة:

الخطاب في أعق صورته الغامضة جهاز مفاهيمي ولد من رحم المنطق والفلسفة والبلاغة، وتحرر معرفيا مع الدرس اللساني الحديث، بحيث دفع بحركية العلوم المختلفة إلى بناء منطوماتها المصطلحية ومفاهيمها المعرفية وفق أنساق معرفية جديدة. تنزع إلى المغايرة، وتحديد مسارات سليمة للوصول للحقيقة. اعتبر مصطلح « خطاب » « Discours » في حد ذاته من المصطلحات ما بعد الحداثية بتوصيفها الفلسفي، ومن مخرجات ما بعد البنيوية في التصور النقدي والمنهجي، وقد كان ميلاده ضمن مشروع معرفي كبير واعد لـ « ميشال فوكو M.Foucault » في حفريات المعرفة « L'archéologie du savoir ». حيث يكون الاشتغال بأدوات المنهج اللساني البنيوي المعتمد على ملاحقة البعد الزماني للغة ولآليات التتابع فيها. ضمن مخرجات معرفية جديدة.

هذه الطفرة المعرفية الحادثة تغدو في متعلقها العام بممارسات حفرية لغوية أشبه بتنقيب علماء الآثار، وهي في الأصل تمارس تحقيقا معرفيا أصوليا للفكر الإنساني مبني على تلاقي المنهج البنيوي مع التصور الإيبستيمي للعلوم مع حركية التاريخ .

وقد كان لهذا العمل المنضبط أنه هو الذي «خوّل لنا الانتقال المعرفي من مجال الحديث عن تاريخ الفكر القائم على الأحداث الخارجية عنه إلى مجال «تاريخ أنظمة الفكر»¹ وهو انتقال آمن للحديث عن التحولات العميقة التي حدثت للفكر فصيرته نسقا أو بنية مستقلة بذاتها ومنتهية .

2. مفهوم الخطاب في ميزان التنظير اللساني

رغم الريادة المعرفية التي قدّمها هاريس R.harris.. بمحاولته توسيع حدود الجملة إلى حدود الخطاب، فقد عرفه « على أنه ملفوظ أو متتالية تكون مجموعة منغلقة يمكن نم خلالها معاينة بنية سلسلة من العناصر التوزيعية وبشكل يجعلها تظل في مجال لساني محض »²

إلا أنّ محدودية الخطاب انطلقت من مفهومية « بلومفيلد » في كون الخطاب من منظوره متتالية من الجمل تقدم بنية للملفوظ، ورفض اعتباره متتالية الجمل تحيل إلى بنية الملفوظ، لأن العملية التلفظية في نظره « كل متلفظ يفترض متكلمًا ومستمعًا وهدف الأول هو التأثير في الثاني »³ في كونه في اعتبارها متتاليات تلفظية فقط.

وفي صميم عمل السمات التمييزية التي يحملها كلّ نسق من الأنساق الخطابية، ثمة يقع التمايز الفاصل بينها، وتحدّد على تداعياتها مجموعة من المحدّدات، يمكن أن « نسمّي خطابا مجموعة الملفوظات التي تنتمي إلى نفس التشكيلة الخطابية »⁴

فتحديد « ميشال فوكو » M. Foucault. مفهومه للخطاب مرادفا لمفهومه للغة، ليؤسس مفهومًا جديدًا، بحيث يعرفه على أنه « المنظومة المنطوقية العامة التي تحكم مجموع الانجازات اللفظية »⁵ .وعليه يكون الخطاب وفق هذا التّصور المعرفي الجديد هو عبارة عن منطوقات تنتمي إلى تشكيلة خطابية، وبوظيفة المنطوق داخلها تتحدّد علاقته الاجتماعية والتاريخية.

وعليه فإنّ محدّدات الخطاب لا يمكن ضبطها إلاّ ضمن التشكيلة الخطابية احترازا من التباسه من وحدات أخرى مثل « نظرية » « علم » أو غيرهما، وعليه يمكن إرجاعه إلى مجموع من الملفوظات التي يمكن إرجاعها إلى نفس النظام من القواعد المحدّدة ولعلّ الأداة المنهجية التي يمكن الاعتداد بها وهو إعادة الاعتبار للعناصر الدالة والفاعلة في المعنى، ويغدو النص في كينونتها مجرد عنصر متسق مع العناصر الأخرى المشكلة للدلالة.

غير أنّ الإرباك المعرفي الحاصل في حقل الدراسات المهتمة بتحليل الخطاب، يمكن ادراجه ضمن الخلط في استعمال المفهوم، فهو تارة يُوظف بمعنى الكلام، وتارة بمعنى الفكر، وأخرى بمفهوم النصّ، ومن ثمّ وجب الضبط المعرفي لمجاورته للمفاهيم البنيوية مثل الكلام والنص والفكر.

وفي تحصيل حتمي للزخم المعرفي لفكر ما بعد البنيوية، نجد أنّ لفظة خطاب أصبحت بديلا مستحقا للفكر، وورثا شرعيا له - اذا أردنا التخفيف من ثقل العبارة - لأن جملة من مفردات الثورة المعرفية الواعدة قد أحدثت الفوارق بينهما .

فالفكر تنظير لكنّ درس الخطاب فيما بعد خرج من عباءة اللغة، أقصد من عباءة علم اللغة، إلى فضاء أعم وأرحب بكثير، وذلك على يدي (ميشيل فوكو M.foucault)، الذي فتح الأفق لقراءة نظام الخطاب، أو قلّ أنظمة الخطابات جميعها، التاريخية منها، والمعاصرة لنا.

وأحدث ثورة في هذا المجال كادت تقطع الصلة ما بين الخطاب والبلاغة الإصطلاحية، إلا أنه احتفى بمفهوم القوة، أي قوة الخطاب المتمثلة بالسلطة التي يشتمل عليها، سواء أكانت من نواتج الشكل البلاغي له، أو من مفاعيل البناء الداخلي لنظامه، وانصبّ جلّ اهتمامه على تفكيك أنظمة الخطابات التي تعرّض لها في دراساته العديدة، والمنفتحة على مجالات متباينة.

وهو لصفته هذه مجرد مُحْتَفِي بوعي اللغة، بينما الخطاب هو الباعث على فهم تشكلات الفكر، من خلال فهم أدوات عمله، ولا يكون تشكيل معنى محدّد للمفهوم إلاّ بتضافر مجموعة من الفواعل التي تدير مهمة استجلاء المعنى.

لذا كان من الناحية المعرفية لفظة الخطاب أنجع من مصطلح الفكر، وعندها يكون الضبط المنهجي لأدوار الفواعل في تحديد معنى للخطاب ممكناً، مضافاً إليه ميزة الاختلاف المسموح بها، وعدم استفراء جملة دون أخرى في تحديد المغزى من الخطاب، وعالية فالخروج من دائرة الفكر إلى مجال الخطاب، هو في الحقيقة خروج من المطلق إلى النسبية.

أما إذا جئنا إلى تمحيص الخلط المنهجي الحاصل بين الخطاب والنّص - والذي أحدث آفات في التصور لم يستطع بعض الباحثين الخروج منها - فنجد أنّهما يختلفان من حيث الحدود، فالنّص يمكن الوقوف عند بنيته الداخلية، أما الخطاب فهو أكثر شمولية، فهو «يتجاوز كيان البنية ليدخل كيان التاريخ بنيويا»⁶

يمكن فهم عمل الخطاب وفق المعطيات المعرفية الجديدة من خلال المساحة التي يمنحها أثناء الممارسة النقدية، حيث أعاد للحيزات الاجتماعية والنفسية وغيرها، وعلاقة منتج الخطاب بموقعه الطبقي، أفقا معرفيا يمكن ملاحقة تداعياته ضمن مفهوم شامل هو «السياق».

هذه المساحة خرجت بالخطاب إلى آفاق متعاقبة بالعوامل الخارجية، والانتباه إلى دورها في إنتاج الدلالة، وعليه ما عاد للنص القدرة المطلقة في منح قارئه المعنى من خلال توليفات الجمل والكلمات، بل أنهت نظرية الخطاب استقلالية النص وانفراده بالدلالة، وجعلته تابعا لبنية أعم هي بنية الخطاب.

ولعل ما انتهى إليه الخطاب في حسمه لبعض إشكاليات الثنائيات التي صاحبت تاريخ النقد، بحيث تجاوز المفهوم التقليدي للنّص، عبر الخروج من البنية المغلقة التي تتحدّد في الكاتب والسلطة الوهمية التي احتفى بها، وإنما غدا هذا الخطاب بصورته الجديدة كلّ ما ينتجه المبدع، وما يقدمه القارئ من مدد تأويلي. أو حتى ما يغيب عنهما معا.

وعليه يمكن إجمال القول في الفروق المنهجية بين الخطاب والفكر والنّص، هو أنّ تمثيلات الخطاب تكمن في مظاهر السياق المنتج للنّص، كون «الكلام المنظم عن أشياء بالسكوت عن أشياء وإبراز أشياء، أو بعبارة أخرى إنّ الخطاب هو الاستدلال على أشياء مع اغفال كثير من الأشياء»⁷

وهي غاية ألزمت الخطاب التماهي مع المسكوت عنه، وتوسيع دائرة المساحات التي يتربع عليها الخطاب. وعليه فإنّ المشكلات المعرفية ومزالقها المحفوفة بالمخاطر التي تترتب عن ملاحقة الجانب المراءو في الخطاب أو المسكوت عنه، تبدو في غاية الصعوبة، ومع ذلك فهي تحتفظ بنوع من المتعة، وأحيانا الأرق المعرفي، كونها جاءت بعد عملية الانتقال العسيرة من فلسفة الحضور بكل وهجها وصدقيتها إلى فلسفة

الغياب بكلّ تعقيداتها المعرفية، والتي ستكون - بالطبع - أكبر مشروع انجازي يشتغل عليه التحليل العلمي للخطاب .

ولعلّ الوجهة في تحري صفة الضبط العلمي، سيكون محلّ خلاف أزلي ومعرفي، لا يمكن التنبؤ بمآلاته رغم الوعود المعرفية الواعدة في الوصول إلى صفة العلمية لكلّ تحليل خطابي.

تأصيل الخطاب في الثقافة العربية :

في سبيل التأصيل المعرفي لمصطلح «الخطاب» في الثقافة العربية، ثمة مبادئ وأعراف ووسائل تنخرط فيها كلّ منظومة تنقل المصطلح من موطنه الأصلي إلى منظومات معرفية أخرى، وهي بالمناسبة منضبطة بمعايير علميّة تسيرها منطق عليه التّموذج الحضاري السائد في الغالب ، ولا تسمح لكثير من المناورة الآ في حالات ضيّقة كونها تحتكم الى مسارات بالغة التعقيد.

وقد تنتابه إجراءات اشتغالية متباينة، كأنّ تبقيه على حالته الأولى، مع ارفاقه ببعض التعديلات، أو تعيد برمجته كلياً وفق إطارها الحضاري والمعرفي الذي يتناسب مع سياقاتها وتوجهاتها المعرفية.

ولعلّ مرحلة تحويل العبارة المنقولة في مستوى المفهوم من ثقافة إلى أخرى مغايرة لها تماماً، قد تكون محفوفة بمخاطر علمية جمة، يمكن نمذجة سؤالها المعرفي في الإطار التالي:

- ما طبيعة الأدوات الاشتغالية الآمنة للتحويل المصطلحي للفظ «الخطاب» في المنظومة العربية أولاً، ثم إلى الانتقال بها إلى مستوى المفهوم ثانياً ؟.

1-2- مسالك التحويل المعرفي الآمن:

ثمة مسلمة يمكن الاتفاق عليها، مفادها، أنّ عملية التحويل هذه، تمر حتماً بمسالك معقدة، يمكن أن ترقى في بعض مراحلها إلى عوائق معرفية يصعب حلّ بعض مفرداتها، كون المبادئ القواعد العامة التي سطرها علماء السيميائيات و الانطولوجيا اللسانية، تقوم على فكرة، مفادها « أنّ منظومة لغوية- بمفرداتها وتراكيبها ونحوها تؤثر في طريقة رؤية أهلها للعالم وكيفية مفصلتهم له، ومن ثمة تؤثر في طريقة تفكيرهم »⁸

تكمن الإشكالية هنا، في كون المصطلح المترجم قد يأخذ المعنى الأصلي للغة المترجم إليها، فمصطلح خطاب - الذي نحن بصدد الحديث عنه - الذي يحمل السّمة الاشتقاقية لمادة (خ . ط . ب) اعتمد ليحمل داخل المنظومة النقدية الأدبية والحضارية العربية، دلالة المصطلح الغربي (Discours.)

وفي سبيل تحقيق الانتقال الآمن لمصطلح الخطاب من لغته الأصلية إلى اللغة المترجم إليها، ثمة مقصد عام يكمن في جعل التداول بهذه اللفظة الوافدة يمر بسلسلة وإدراك عفوي، كونها تشير بوعي خفيّ إلى المرجعية الحضارية والنظرة الكونية للعالم لأهل تلك اللغة.

وثمة، أيضاً، عمل منهجي ينتظر المترجم يكمن في الأساس في كفايته المعرفية على تحقيق المواءمة بين نظامين دلاليين غير متجانسين، يدرك من خلالهما نقاط التلاقي بين المصطلحين داخل المنظومتين اللغويتين، ويعتمد إلى تفادي فكرة التلفيق التي قد تكون مضرة، كون أن كلّ وحدة لغوية تحمل رؤية حضارية متفردة للعالم.

و عليه وبأدوات اشتغالية علمية تقع أولاً عملية الاستيعاب، ثمّ ينقل إلى المجال التداولي ليُصهر داخل النظام المعرفي العربي المنقول إليه.

في طريقة الاشتغال العملية هذه لتأصيل الخطاب /Discours. داخل اللغة العربية ينبغي إجراء مسح شامل لتواجد هذه اللفظة داخل نسيج التراث العربي القديم، وهنا يكون العمل داخل المعاجم القديمة المتنوعة البناء، ثم في الموروث الديني سيما المقدس منه، كما هو الشأن بالنسبة للقرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، ثم النظر إليها في لسان العرب لصاحبه - ابن منظور - على اعتبار وجهته العلمية المشهود بها، كونه تابع ورصد تواجدها في حقبة زمنية متنوعة. دون أن نغفل مقصده العام الشريف في الحفاظ على نقاء اللغة العربية ومعرفة الدّخيل عليها زمن الانحطاط الحضاري.

وقد تكون العملية في مجملها متعلقة بمفهوم الخطاب زمن نقاوة العربية وصفائها، وذلك معرفة لخصائصه وشروط إنتاجه من جهة، ولكل التحولات الحادثة فيه على مرّ الأزمنة. حتى تُمكن هذه العملية الواعية من معرفة خصائص مصطلح الخطاب أولاً، ثم ضبطه - على مستوى الفهم - ضمن نظام اللغة العربية.

وعليه يمكن بناء السؤال المعرفي بهذه الصورة وهو يحمل في صميمه التساؤل عن نظام الدلالة لمادة (خ، ط، ب) في اللغة العربية من خلال أمهات الكتب؟

في البدء، غطت مادة (خ، ط، ب) أربع صفحات من لسان العرب، تنوع فيها الشاهد على أصل المادة من النص القرآني والحديث النبوي الشريف ومن الشعر وأقوال مأثورة وحكم وغيرها..⁹

فقد استمد المصطلح مرجعيته من القرآن الكريم، فقد ذكرت المادة (خ، ط، ب) اثني عشرة مرة، وتنوعت تأدياتها فأحيانا تأتي بصيغة الفعل، وأحيانا أخرى بالمصدر وغيرهما... وهو بصيغة الفعل « يدل على الكلام لمن يفهم، ونقل من الدلالة على الحدث المجرد من الزمن إلى الدلالة الاسمية فأصبح في عرف الأصوليين يدل على ما خوطب به هو الكلام »¹⁰

أما في السنة النبوية الصحيحة الإسناد فقد وردت المادة في مواضع كثيرة سواء لفظا بعينه أو مشتقا من المادة، وقد يصعب إحصاؤها.

من خلال هذا المسح الإحصائي الأولي لهذه المادة يمكن استخلاص جوهر هذه المادة في ثلاثة مستويات يمكن عرضها مرتبة كالآتي :

أ- المستوى الأول:

تعني مادة (خ، ط، ب) الشأن والغرض، والدلالة المعنية بذلك في لفظة « خطب » بسكون العين، فقد ذكر صاحب اللسان « الخطب، الشأن أو الأمر، صغراً عظماً (...) والخطب الأمر الذي يقع فيه المخاطبة (...) والخطاب والمخاطبة: مراجعة الكلام، وقد خاطبه بالكلام مخاطبة وخطابا وهما يتخاطبان (...) والمخاطبة صيغة مبالغة تفيد الاشتراك والمشاركة في فعل ذي شأن »¹¹

وقد ورد في القرآن الكريم في سياق هذا الغرض، ويمكن ذكر شاهد منها في قوله تعالى: « ما خطبكما » أي ما شأنكما من منع السقي عن الناس ؟

دون أن نتجاوز بعض الانتباهات التي لا يجوز إغفالها من قبيل اقتران دلالة الخطب بمصطلح الخطاب، كونهما متلازمان، أو بعبارة أخرى كل خطاب - يحمل مشروعاً ما. يأتي تحقيقه وفق مقتضيات عدّة .

ب- المستوى الثاني:

مادة (خ، ط، ب) في هذا المستوى تكون للدلالة على كلام حامل لشأن أو غرض، وشاهده حملها لمادة تشترك فيها الأفعال "خطب" و"خاطب" وكافة المصادر المشتقة منهما.

وهنا تحمل دلالة الكلام سواءً كان شفهيًا أو كتابيًا، حاملًا بالبداية لغرض ما.

ففي مسائل النظر في مصطلح الخطاب في التراث العربي فقد أورد الزمخشري في تفسير «فصل الخطاب» على أنه «الكلام المبين الدال على المقصود بالالتباس»¹²

و «أما بعد» - الصيغة المشهورة في إيراد الخطاب - فهي ترد لتنبيه القارئ على بداية جوهر الموضوع. كما هي عند فلاديمير بروب وطورها جاكبسون R.Jacobson فيما بعد، ف «أما بعد» فيقوم بالوظيفة الانتباهية، في حين أن ما يرد بعدها يؤدي الوظيفة الاقناعية.

هناك أيضًا تأويلا لقول ربنا «وشددنا ملكه وأتيناه الحكمة وفصل الخطاب» فقد قيل الفصل في الخطاب «الفقه في القضاء»¹³ ثم هناك الدلالة الإضافية التي تحملها مادة (خ، ط، ب) بمعنى النفوذ والسلطة، والعلاقة بين السلطة والخطاب عند فوكو M.foucault علاقة تلازمية.

ت- المستوى الثالث:

مادة (خ، ط، ب) تعني حصول سلطة لانجاز الشأن أو الغرض، فقد ذكر صاحب اللسان «رجل خطيب حسن الخطبة.... وفي حديث الحجاج أمّن أهل المحاشد والمخاطب أنت»¹⁴

وهنا سيكون الاقتران الحتمي بين السلطتين- أي بين سلطتي الخطاب والسلطة، وما سيتداعى منهما ستكون افرازًا طبيعيًا لسلطة عليا بالضرورة، كون الحجاج يُمثل السلطة الرسمية التي يقيم من خلالها عماد السلطة المعارضة مُمثلًا في الخطاب.

كما علينا الانتباه إلى ملاحظة مهمة وهي:

- أنّ المفهوم من نص ابن منظور المعجمي دلالاته المضمرّة، هو أنّ السلطة هنا بكل أدوات هيمنتها التي تمارسها سواءً كانت ظاهرة أو غائبة، هي سلطة الحجة والبرهان.

أما إذا جئنا لإجمال الكلام في هذا المستوى نجد أن مادة (خ، ط، ب) تحمل معنى جوهريًا، وهو الكلام الحامل لـ «رسالة ما والمعتمد على سلطة لتبليغها وتحقيقها وهذا الكلام أطلق عليه العرب مصطلح «الخطاب»»¹⁵

وبعد كلّ هذه المسحة المعرفية التي قدمناها، فإنّ الذي يمكن الاعتداد به هو أنّ مصطلح الخطاب في اللغة العربية له كامل القدرة المعرفية على حمل هذا المصطلح الغربي نظرًا للمرونة التي يمتاز بها، وكذلك القابلية.

وعليه فقد ارتقت هذه اللفظة من المستوى العادي، والذي هو حيزها اللغوي المعهود إلى مجالات استعمالها في علم النقد الأدبي. وما تداعى منها من نظريات وآراء نقدية أثرت النقاش في مسائل الخطاب.

3- تحويل الخطاب إلى مفهوم :

في طبيعة تكوين الخطاب العربي ثمة خصوصية بالغة الحساسية غداة محاولة فحص بعض تكويناتها، ذلك لأنه ينتهي إلى أمة بهذه الخلفية، تميزت باعتنائها الشديد بالبيان والبلاغة والشعر ومختلف صنوف التعبير، فضلا عن المجاز وفنونه، عندها يمكن أن نفهم مختلف الصعوبات التي تعيق الإحاطة الكاملة بقوانين الخطاب المنظمة له، دون أن نغفل المنحى الإبيستيمي في هذا الجانب، حيث لم تتمكن الآلة الإبيستمولوجية من تجاوز هذا العائق المعرفي، وذلك لصعوبة استنباط القوانين العامة المنظمة لعمل الخطاب، لا سيما ضمن منطقة التعالق بين ما هو بلاغي ووجداني مثلا، فعندها يكون العمل بالجانب الاستدلالي الصارم ضربا من الإجحاف ومجانبية الحقيقة في ملاحقة طبيعة الممارسة الكلامية المصبوغة بالطابع الوجداني.

1- الخطاب والقوانين الكلية:

لقد أقر علماء اللسانيات تلك الصعوبة الحاصلة في استحالة ضبط الاستعمال اللغوي بصفته الاعتبارية العفوية بالمعيار اللغوي الصارم لأن المتلقي « إذا عرض عليه الكلام حائدا عن أسلوب العرب وبلاغتهم في نضم كلامهم أعرض عنه ومجّه وعلم أنّه ليس من كلام العرب الذين مارس كلامهم، وإنما يعجز عن الاحتجاج بذلك كما يصنع أهل القوانين النحوية والبيانة »¹⁶

وعليه يكون المتلقي الحامل لصفة المتمرس قد فهم الخطاب الممارس عليه، دون أن يتمكن من الإبانة عن القوانين المتحركة فيه، ولعله أيضا مما خلصت إليه النظرية اللسانية والشعرية العاملة على التراث العربي جملة من المسلمات، بحيث « لأن كان المتلقي - متى صفا عقله واستأنست بأفانين القول نفسه قادرا على تمييز جيد الكلام من رديئه، فإنّ ما به يتبين الفرق بين كلام وكلام... يكاد لا يحيط به رسم ولا تجد الى العبارة عنه سبيلا »¹⁷

في الدرس اللساني الغربي، ثمة ادراك واعي لمشكلة التّفاوت الحاصل في ثنائيتي اللغة القدرة والانجاز، من ناحية القدرة اللّغوية، ثمة دوال متناهية، أما من ناحية الانجاز الكلامي فإنّه لامتناهي ذلك « انّ رغبتنا وقدرتنا على الفهم تتجاوز أيّ بيان يمكن تكوينه »¹⁸

3-1- الخطاب ومرجعية السلطة :

في متعلق نظام الخطاب العربي، ثمة انبثاء على ثنائية: خطاب/ سلطة، وما يترتب عنهما من حصول التّوجيه الذي يقتضيه المقصد، مع حدوث فعل التعارض اللازم له، ذلك أنّه « إذا تقرر أن كل منطوق به يتوقف وصفه ب - الكلام - على أن يقترن بقصد مزدوج يتمثل في تحصيل الناطق لقصد التوجه بمنطوقه إلى الغير ولقصد إفهامه بهذا المنطوق معنى ما، فاعرف أن المنطوق به الذي يصلح أن يكون كلاما هو الذي ينهض بتمام المقتضيات التواصلية الواجبة في حق ما يسمى « خطابا » »¹⁹

وإذا تعذر التصدي لسلطة الخطاب الحاملة لصفة الهيمنة، فإنّ البحث عن مسالك أخرى قد يكون لها المشروعية، كأن تتغير بنية الخطاب من ظاهر بريء إلى باطن يختزن كل مفردات الخطاب دون يتأثر الظاهر من الخطاب بذلك.

في تاريخ الخطاب العربي ثمة اهتماما بتحقيق لجمالية اللفظة، وتحسينا لتأدياتها، حتى يتمكن المعنى من المرور إلى المتلقي بمرونة، ودائما ما تحمل صفة التّمويه- في أوجهها المتنوعة وأحيانا الماكرة- سلطة ما تريد في الغالب الهيمنة والنّفوذ.

وهي صورة لانتقال المعنى العقائدي المبني على فكرة التوحيد العقائدية عند العرب لكل تجليات الخطابات

ثمة اعتقاد على أنّ المعنى واحد لا يتجزأ، وأنّما تخيّر الألفاظ المؤدية له هو محلّ الاجتهاد والاستدلال « فكما أنّ الأواني التي يغترف بها الماء من البحر منها أنية من الذهب والفضة والصدف والزجاج والخزف والماء واحد في نفسه، تختلف الجودة في الأواني المملوءة بالماء باختلاف الماء. كذلك جودة اللغة وبلاغتها في الاستعمال تختلف باختلاف طبقات الكلام في تأليفه »²⁰

وقد جعل العرب للألفاظ مراتب، يُتخير لها ما يناسب كلّ حالة، أي بحسب درجة الخداع والمكر والمراوغة، ذلك أنّ عملية الإقناع تقتضي احتفاءً باللفظة وصولاً إلى تبني الفكرة، ولا يتأتى ذلك إلا إذا كان مركوزاً في طبع المخاطب فعل التمويه، أو الخداع أو ما شابههما.

وقد وضع ابن سينا في ذلك مصطلحين دقيقين لذلك، حين أقرّ أنّ للخطاب مظهرين اثنين، هما: « مصدّق » و « مخيّل » وصفة التعارض الحاصلة في استخدامهما لأدوات اشتغال منضبطة بالمقصد العام من الخطاب، فالأول ميال إلى صدق العبارة المنضبطة برجاحة عقل المُخاطب، والثاني يحترف التمويه كما أسلفنا، ولعل طبقة من المتلقين تجنح الى التخيل، ذلك لأنه « أطوع للتخيل منهم للتصديق (...) وربما شغل التخيل عن الالتفات إلى التصديق والشعور »²¹

وفي تاريخية نظام الخطاب العربي، بما فيه الفلسفي منه، فانه لا يعدم من الالتجاء إلى طبائع تحمل حيلة خطابية، يمكن لها أن تفتعل المواربة والخفاء في تقديم الحقائق، مخافة حدوث اللبس، فقد عمدوا أحيانا إلى الرمز، حيث اهتدى ابن المقفع إلى « جعل كتابه على ألسنة الهائم والطير صيانة لغرضه الأقصى فيه من العوام وضنا بما ضمّنه عن الطغام »²²

وللتفعيل الأمثل لسلطة الخفاء هذه، وبلوغ أقصى تأدياتها، ثمة اعتناءً باللفظ دون سواه، ذلك لأنّ « المعاني موجودة في طباع الناس يستوي الجاهل فيها والحاذق، ولكن العمل على جودة اللفظ وحسن السبك وصحة التأليف »²³

في هذا المنحى ثمة تفاوت معرفي قد حصل في تصورههم للعلاقة بين اللفظ والمعنى، حيث تقدم لسانيات الخطاب وجهة نضر علمية، تقوم على أساس أنّ المغالاة في تزيين الكلام، سيؤدي إلى تفاوت بين منطوق الخطاب ومفهومه.

2-3- فكرة الكليات ونماذج عربية :

في سبيل ضبط أوجه التعالق بين الخطاب في اللغة العربية، وبين Discours نجد أنهما يقران على أنه كلاما يضم معنى غائبا، ليس مصرحا به، تحترف سلطة معيّنة تمرير رسالة . وقد يكون من المفيد الانتباه إلى المنزلة التي حضي بها التفكير المجرد في الكلام، وكيف حاول علماء العرب القدامى الاهتمام للمقولات الكلية المنضمة للخطابات.

دون المزيد من الغوص في التفصيل في حجم الإسهامات العربية المغيبة في الدرس اللساني الغربي، ثمة غفلة معرفية غربية لو استدركت في وقتها لكان الدرس اللساني الغربي على غير ما هو عليه اليوم.*
يمكن الإشارة إلى بعض اللّمحات التي قدمها العرب، حول دور المتلقي في إنتاج المعنى، ويمكن هنا التدليل بنموذج الجاحظ حين قدّم قراءة تداولية للخطبة، وكيف انتبه لدور المقام والسياقات الحافة بانتاج المعنى، وقدّم أفكارا متقدمة حول مقتضيات المقام الخطابي، ولعل الانتباه إلى الأنظمة الدلالية المنضوية خارج اللغة كاليئة والنسبة والعلامة والإشارة خير دليل على ذلك.
فالمأمل مثلا لكتاب الحيوان للجاحظ يلمس تلك الروح العلمية الباحثة عن الكليات العامة التي يمكن الركون إليها، حين قدّم الكون على أنّه نص قابل للقراءة، ضمن فكرة جوهرية، عميقة الدلالة، يكتنفها سؤال عام، مفاده :

- كيف يمكن لـ « الدليل الذي لا يستدلّ »- الذي هو الحيوان والنبات والجماد - « الدليل المستدلّ »- الذي هو الإنسان - من بلوغ كنه نفسه لإدراك مآرب الحكمة ؟.
وهو سؤال جوهرى وعميق في لائحة البحث عن الكليات.

وقد احتفى الجاحظ في مقصده العام، لدى بحثه عن المعاني كثيرا بمركزية الدلالة عند الإنسان، كونه هو في حدّ ذاته هو محور للدلالة، ومنتجا لها، أما سائر الأشياء السائرة معه فهي مساعدة له فقط، وقدم في ذلك أدلة على ذلك - سيما العقلية منها - « فشارك كل حيوان سوى الإنسان جميع الجماد في الدلالة وعدم الاستدلال، واجتمع للإنسان أن كان دليلا مستدلا »²⁴
إذا جئنا لإجمال القول في مسألة بنائية الخطاب في اللغة العربية، نجد أنّ العرب قد وضعوا آليات اشتغالية مرنة في التعامل مع الخطابات* وقُدِّمت في ذلك قراءات متقدّمة استفاد منها حتى الدرس اللساني الحديث.

هوامش البحث:

¹ - د. مختار الفجاري، مفهوم الخطاب - بين مرجعه الاصيلي الغربي وتأصيله في الثقافة العربية، مصدر سابق، ص 532

² - سعيد يقطين، تحليل الخطاب الروائي (الزمن، السرد، التنبؤ) المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ص 17

³ - Emile BENVENISTE. PROBLEMES DE LINGUISTIQUE GENERALE, T1. P241.

⁴ - M. Foucault : L'archéologie du savoir, Paris, Gallimard, 1953.

⁴ - عبد الواسع الحميري، الخطاب والنص - المفهوم، العلاقة، السلطة، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت- لبنان، الطبعة/2008، ص 100

⁶ - مطاع الصفدي، الخطاب الكثير، الفكر العربي المعاصر، العدد 60، ص 3

⁷ - محمد عابد الجابري، تكوين العقل العربي، المركز الثقافي العربي- الدار البيضاء، المغرب، 1986، ص 61

⁸ - Adam Schaf ; Langage et connaissance, Anthropos, paris, 1967, p. 5.

⁹ - ابن منظور، لسان العرب، دار الفكر، مكتبة الحياة، ج 8، باب الباء، ص 153

¹⁰ - عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب مقارنة لغوية تداولية، دار الكتاب الجديد المتحدة د.ت، ص 27

¹¹ - ابن منظور، لسان العرب، ج 1، تح: عامر أحمد حيدر الطبعة الاولى، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 2005، مادة حَطَب

¹² - مولاي علي بوخاتم، النقد السميائي، الإشكالية والأصول والامتداد، اتحاد الكتاب العرب، 2004م، ص 253

¹³ - عبد القادر شرشار، تحليل الخطاب الأدبي وقضايا النص، دار الأديب، الجزائر، 2006م، ص 10

¹⁴ - ابن منظور، لسان العرب، دار الفكر، مكتبة الحياة، ج 8، باب الباء، ص 154

- ¹⁵ - د. مختار الفجاري، مفهوم الخطاب – بين مرجعه الأصلي الغربي وتأصيله في الثقافة العربية، مجلة جامعة طيبة، للأدب والعلوم الانسانية ، السنة الثانية، العدد 3، 1455 هـ، ص 570
- ¹⁶ - ابن خلدون، المقدمة، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ص 563
- ¹⁷ - صمّود وآخرون : النظرية اللسانية والشعرية في التراث العربي من خلال النصوص، الدار العربية للنشر، تونس 1988، ص 43
- ¹⁸ - قادمار: الحقيقة والمنهج، الخطوط الأساسية لتأويلية فلسفية، تعريب حسن ناضم وعلى حاكم صالح، دار أوبا، طرابلس، ص 525
- ¹⁹ - طه عبد الرحمان، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، الطبعة الثانية 2008، المركز الثقافي العربي – الدار البيضاء – المغرب، ص 215
- ²⁰ - ابن خلدون، المقدمة، - مصدر سابق-، ص 578
- ²¹ - ابن سينا، فن الشعر، تح/ عبد الرحمان بدوي، دار الثقافة، الطبعة الثانية، بيروت 1984، ص 123
- ²² - ابن المقفع، كليله ودمنة، مؤسسة المعارف، بيروت 1981، ص 16
- ²³ - ابن رشيق، العمدة في محاسن الشعر وأدبه، دار الجيل، الجزء الأول، بيروت 1972، ص 124
- * - يمكن الرجوع لكتابات للباحث عبد السلام المسدي، التفكير اللساني في الحضارة العربية، الدار العربية للكتاب، طرابلس، ص 23
- ²⁴ - الجاحظ، كتاب الحيوان، تحقيق عبد السلام محمد هارون، الجزء الأول، القاهرة 1965، ص 33
- * - ينظر، الجابري (محمد عابد)، « بنية العقل العربي » في قوانين تفسير الخطاب وشروط إنتاجه. ضمن قسم العلاقة بين اللفظ والمعنى في الخطاب

قائمة المراجع:

- ابن المقفع، كليله ودمنة، مؤسسة المعارف، بيروت 1981.
- ابن خلدون، المقدمة، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- ابن رشيق، العمدة في محاسن الشعر وأدبه، دار الجيل، الجزء الأول، بيروت 1972
- ابن سينا، فن الشعر، تحقيق عبد الرحمان بدوي، دار الثقافة، الطبعة الثانية، بيروت 1984.
- ابن منظور، لسان العرب، تح: عامر أحمد حيدر الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان 2005.
- الجاحظ، كتاب الحيوان، تح/ عبد السلام محمد هارون ، القاهرة 1965.
- سعيد يقطين، تحليل الخطاب الروائي (الزمن، السرد، التثنية) المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب
- صمّود وآخرون : النظرية اللسانية والشعرية في التراث العربي من خلال النصوص، الدار العربية للنشر، تونس 1988.
- طه عبد الرحمان، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، الطبعة الثانية 2008، المركز الثقافي العربي – الدار البيضاء – المغرب.
- عبد السلام المسدي، التفكير اللساني في الحضارة العربية، الدار العربية للكتاب، طرابلس،
- عبد القادر شرشار، تحليل الخطاب الأدبي وقضايا النص، دار الأديب، الجزائر، 2006م.²⁵
- عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب مقارنة لغوية تداولية، دار الكتاب الجديد المتحدة د.ت.
- عبد الواسع الحميري، الخطاب والنص – المفهوم، العلاقة، السلطة، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت- لبنان، الطبعة 1/2008.
- قادمار: الحقيقة والمنهج، الخطوط الأساسية لتأويلية فلسفية، تعريب حسن ناضم وعلى حاكم صالح، دار أوبا، طرابلس.
- محمد عابد الجابري، تكوين العقل العربي، المركز الثقافي العربي- الدار البيضاء، المغرب 1986
- مولاي علي بوخاتم، النقد السيميائي، الإشكالية والأصول والامتداد، اتحاد الكتاب العرب، 2004م.
- مختار الفجاري، مفهوم الخطاب – بين مرجعه الأصلي الغربي وتأصيله في الثقافة العربية، مجلة جامعة طيبة، للأدب والعلوم الانسانية ، السنة الثانية، العدد 3، 1455 هـ،
- مطاع الصفدي، الخطاب الكثير، الفكر العربي المعاصر، العدد 60، 61.
- Adam Schaf ; Langage et connaissance, Anthropos, Paris , 1967 .
- Emile BENVENISTE. PROBLEMES DE LINGUISTIQUE GENERALE, T1.
- M. Foucault : L'archéologie du savoir , Paris , Gallimard .